

بين الجمال والخطاب

د. أ. سعيد نواصر

جامعة أدرار

هذه الدراسة تتناول حيثيات الجمال و الخطاب, والعلاقة بينهما، وعلاقة الجمال بالقرآن الكريم, وتبرز المفهوم اللغوي و الاصطلاحي لكلٍ منهم من أجل إبراز الوظيفة الجمالية للغة الخطاب و الارتقاء بالجوانب اللغوية في الاستعمالات النقدية في علم الجمال الذي يعد القاسم المشترك بين مختلف الفنون الأدبية و اللغوية و باعتبار الخطاب القرآني أرقى مستويات الكلام البلاغي و جماليته اللغوية الإعجازية المنقطعة النظير، فهي محاولة مقارنة بين علم الجمال والخطاب القرآني .



Cette étude examine les mérites de la beauté et de la parole, et la relation entre eux, ainsi que la relation de la beauté Coran, et met en lumière le concept linguistique et idiomatique pour chacun d'eux afin de mettre en évidence la fonction esthétique de la rhétorique et l'amélioration des aspects linguistiques en espèces utilise dans l'esthétique, qui est le dénominateur commun entre les différents arts littéraires et la langue et compte tenu du discours coranique meilleur discours rhétorique et le langage Jamalith niveaux exemplaires de miraculeux, ils essaient d'approcher entre l'esthétique et le discours coranique

الكلمات المفتاحية: الجمال-الخطاب-الخطاب القرآني-جماليات اللغة

مقدمة:

إن عربيتنا الخصبة، ذلك المنهل الثري الذي يعتبر المرجع الأول و الأساسي لكل باحث وأديب ، لها ما يميزها عن لغات البشرية ، كيف لا وهي لغة القراء المنزل على سيد الخلق ؟

حقيقة لا ينكرها ناكر ، وستبدو جلية وواضحة لكل عين تقرأ الأدب و تتذوقه، فاللغة هي وسيلة الأديب للتعبير و الخلق . وهي موسيقاه وألوانه و فكره ، فالتجربة الجمالية في الأدب خلق وإبداع و تفجير لطاقات النص من أجل خلق وعي جمالي منسجم مع الكون والحياة والإنسان ذلك الانسجام الذي نجده في حنايا الكون و قلب الطبيعة ، و علم الجمال مرتبط بالجانب الذاتي عند الإنسان، و لكل فنان أدواته التي يبرز بها تجربته الجمالية التي ما هي في الحقيقة إلا نشدان للكمال في عالم الفن والتذوق الجمالي و هذا الأخير يقتضي وجود طرفين الأول هو الإنسان ، الطرف الثاني هو الموضوع الجمالي ، لذا هناك علاقة وطيدة تكاملية بين الجمال والخطاب و من أجل إزالة الالتباس بينهما ، وتلمس مكان الجمال المقنع الممتع أتجهت إلى التنقيب عن مفهوم الجمال و الخطاب . وإبراز مكان الجمالية والذوقية لهما محاولا تبرير ذلك.

أولا: مفهوم الجمال:

أ - لغة: لا بد من استفتاء المعاجم اللغوية وغيرها في استكناه مفهوم الجمال ، فقد عرفه ابن منظور في لسانه بقوله: ((الجمال مصدر الجميل والفعل جمل ' وقوله عز وجل: «ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون»¹ ، أي: بهاء وحسن ، ابن سيده الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق وقد جمل الرجل بالضم جمالا فهو جميل ، والجمال بالضم و التشديد أجمل من الجميل و جملة ؛ أي زينه والتجمل تكلف الجميل وامرأة جملاء و جميلة و هو أحد ما جاء من فعلاء لا أفعل لها وهبته من أمة سواء ليست بحسناء ولا جملاء))²

وعرفه الزمخشري في أساس البلاغة:

((إن جمل فلان يعامل الناس بالجميل و جامل صاحبه مجامل، و عليك بالمداراة والمجاملة مع الناس ويقول: إذا لم يملكك مالك، لم يجد عليك جمالك و أجمل في الطلب إذا لم يجرى، وإذا أصبت بصائبة فتحمل، أي: أصبر))³.

ب - اصطلاحاً: إن موضوع الجمال قد حظي باهتمام الفلاسفة والمفكرين و الشعراء وأرباب الفنون منذ القدم، وذلك لارتباطه بأعمق الأحاسيس الإنسانية، ولتأثيره الكبير على رؤى وأفكار الإنسان و تبعاً لذلك فان تحديد ماهية الجمال وتشريحه - إن صح التعبير - يحتاج إلى دراسة عميقة و متأنية تتجاوز عرض هذه المقالة لذلك ارتأيت الوقوف على مفهومين على الأكثر ليستبين مفهوم الجمال.

فيطالعنا "أفلاطون" بوجهة نظر محلقة في عالم المثل إذ يفترض وجود مثال للجمال أو يرى أن العمل الفني نقل ومحاكاة: وأن الجمال في المثال جمال المطلق، أما في الأشياء فهو نسبي، وتكون الأشياء جميلة عند ما تكون في موضعها وقييحة عندما تكون في غير موضعها ولكن الأشياء لا تنقسم إلى فسمين جميله وقييحة، بمعنى أن ما ليس جميلاً لا يكون قبيحاً حتماً، إنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء عن كلا الوضعين، ومثال ذلك غير العالم لا يكون حتماً جاهلاً، و إنما هو وسيط بين طرفين متناقضين⁴.

وقد ارتبط الجمال عند الجاحظ بالمنفعة إذ يصف حسن النار بالقول: ((...وكيف حال النار في حسنها، فإن ليس في الأرض جسم لم يصيغ أحسن منه، ولولا معرفتهم بقتلها وإحراقها وإتلافها والألم والحرق المولدين عنها لتضاعف ذلك الحسن عندهم وإنهم ليروئها في الشتاء بغير العيون التي يروئها بها في الصيف ليس ذلك إلا بقدر ما حدث من الاستغناء عنها))⁵.

ونجد في كتاب فروق اللغة لأبي هلال العسكري ((إن الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم))⁶.
من خلال ما سبق نلاحظ صعوبة لاتفاق على معنى موحد لماهية الجمال؛ وذلك الشأن في كل ما يتعلق بأعمق مشاعر الإنسان كالحب والبغض وغيرها،

فالجمال مرتبط بالجانب الذاتي بمعنى أن كل فرد يقوم بتحديد مقاييس الجمال الخاصة به، وبالتالي فهو يستمتع بالجمال من وجهة نظره التي يختلف مع غيره، بمعنى أن الجمال ليس صفة مطلقة بل هو نسبي، وبالتالي فلا يمكن تحديده .

بعد هذا يجب التأكيد أن تلك العناية التي أولاها المسلمون لرصد مظاهر الجمال ومعالجة إشكالية العلاقة الجدلية القائمة بينه وبين مفهوم الجلال، تجد مصدرها الأول في ذلك التأصيل الإسلامي الخالص لمفهوم الجمال والذي نقف عليه سواء في القرآن الكريم أو في السنة النبوية. ويكفي هنا أن نقرأ كيف واجه القرآن الكريم ذلك الفحش الجاهلي الذي فرض على غير القرشيين ألا يطوفوا متعبدين بالمسجد الحرام إلا عراة! حيث اعتبر ذلك "قبحاً" وتجريراً للإنسان من حياته الفطرية أولاً، ثم حرماناً في نفس الآن من التمتع بمختلف مظاهر الزينة، فقال تعالى: ((يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ))

ثانياً: الجمال و القرآن الكريم :

أ: ألفاظ الجمال في القرآن الكريم:

تعددت ألفاظ الجمال حيث يتبين لفظ هذا الجمال في القرآن الكريم بأربع صيغ هي: (جميل، جمال، الجميل، جميلاً)، قال تعالى: ((قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون))⁷

وقال أيضاً: ((ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون))⁸ وقال أيضاً: ((وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل))⁹ ، وقال أيضاً ((فمتعوهم وسرحوهم سراحا جميلاً))¹⁰ .

ب- فنيات الجمال في القرآن الكريم:

وحين يتعلق الجمال بفن القول، فإن القرآن هو ذروة سنام الجمال، ومحط قوافل الروعة والجلال، أعجب البلغاء وأجهد الفصحاء، وما تمالك أحد أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة نفسه حين سمعه فقال: .. إن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته"¹¹.

كما يعتمد القرآن الكريم في توليد الشعور بالجمال والروعة على الكلمة تصويراً، وتجسيماً ، وعلى الموسيقى الداخلية في انسجام تكاد معه تسمع خرير الماء ، وهزيم الرعد، وزجرجرة الريح ، وحفيف الأوراق ، وزقزقة الطير ، وتكاد ترى الطبيعة تنافس فيها بعض فصولها ، وهو ما يعرف عند النقاد بـ الأنوماتونيا: " أي محاكاة الوضع اللغوي لمظاهر الطبيعة ... وقد استخدم القرآن مثل هذه المفردات عندما بث الحركة فيها ، وجسّم معانيه ، وخاطب الحواس عند تقديم الدهنيات"¹².

وعليه يكون الجمال هو معدن القرآن وجوهره، أو ما يسمى في الدراسات النقدية بـ الروعة التي ولدها هذا الأدب في النفوس، وشكلت موسيقاه الداخلية - القرآن الكريم- فلسفة متكاملة كتمهيد قوي للتأثير في الوجدان والعقل.

ثالثاً: مفهوم الخطاب.

أ- لغة : عرفه ابن منظور في لسانه في مادة (خطب) أن "(الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا ، و هما يتخاطبان ، و المخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك و المشاركة في فعل ذي شأن ، قال الليث : أن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أن الخطبة اسم كلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر ، قال بعض المفسرين في قوله تعالى: " وفصل الخطاب " قال هو أن يحكم بالبينة أو اليمين وقيل: معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده وقيل فصل الخطاب: الفقه في القضاء)"¹³

ب - اصطلاحاً: الخطاب من المخاطبة على وزن المفاعلة فهو يقتضي التفاعل بين شخصين أو أكثر بين مرسل ومتلقي، وهذا التفاعل إما أن يخلق إحساساً بالمتعة

والجمال والقبول وإما أن يولد شعورا بالسأم والقبح والنفور، وكثيراً ما ارتبط الخطاب بالخطابة كجنس أدبي تتجلى فيه البلاغة والقدرة على التأثير في المخاطبين. كما يرتبط المفهوم الرابط بين الخطاب والخطابة عند أرسطو طاليس في حديثه عن مكوناتها فيقول: "(إما التي ينبغي القول فيها على مجرى الصناعة ثلاث: إحداهن الأخبار من أي الأشياء تكون التصديقات، والثانية ذكر التي تستعمل في الألفاظ، والثالثة هو أنه كيف ينبغي أن ننظم أو ننسق بين أجزاء القول"¹⁴. والخطاب حسب ميشال فوكو: "نظام تعبير متقن ومضبوط"¹⁵.

رابعا: علاقة الجمال بالخطاب في القرآن الكريم:

أ: التذوق .

ثمّة علاقة وطيدة بين الجمال والخطاب ،لأن عملية التذوق تقتضي وجود طرفين الطرف الأول هو الإنسان والطرف الثاني هو الموضوع الجمالي ،فإن ثمّة فعلا منعكسا يصدر عن الإنسان يعبر عن تفاعل الذات الإنسانية مع الموضوع الجمالي، حيث تتعطل ملكاتها العادية وتتوقف عن التفكير ،فالتذوق الجمالي يبدأ أولاً بالحس ،ويعبر عنه بالانفعال ثم ينتقل ثانيا إلى العقل في عملية الإدراك والتقييم الجماليين. ويرى حسن الصديق: "(على الأديب ألا يكتفي بالثقافة التي تغني فكره ،وتوسع دائرة تجاربه فيتجنب في كتابته الكلمات الممجوجة الثقيلة على السمع، ويتعد عن التكليف أو يهرب من أسلوب أصحاب الآراء والمتكلمين الذين يتخذون من العمل الفني منبرا للوعظ والإرشاد، أو يشرح عقائدهم ومذاهبهم، وعلى الأديب أن يكون مهتما بأدبه وفنه، ولا يفتأ يسعى نحو الأفضل وإن كلفه ذلك جهدا كبيرا من سعى إلى الجمال في الفن الأدبي وذلك بعد الخضوع لسحر اللفظ على حساب المعنى وبالتوفيق بين الشكل والمضمون توفيقا متكاملا يؤدي ما يراد من غاية سامية وأخلاقية)"¹⁶ والذي يثير الاهتمام ويلفت النظر ما يعرف بالتصوير القرآني وهو "التناسق القائم على تقنية توزيع المشاهد، والظلال والأجواء وسيلته في كل ذلك الألفاظ والموسيقى الكامنة في التركيب"¹⁷.

وبذلك يسمو الإعجاز فيه. "وارتكزت أدبية الخطاب القرآني على فنية التصوير بأبعادها اللونية والإيقاعية، والحركية، انسجاماً مع منزعها التوصيلي الفطري الذي يعرض المعنى صورة، والأثر حركة والحالة مشهداً شاخصاً للخيال"¹⁸.

فأدبية الخطاب القرآني تستولي على الوجدان لانسجامها التام مع الفطرة الإنسانية، لاستفزازها لبطورة الشعور بما في الخطاب من دلائل وإيحاءات.

ب - سيد قطب وأدبية الخطاب القرآني:

لقد ربط سيد قطب أدبية الخطاب القرآني بمباحث، كانت في حيز الدراسات الأدبية الوضعية، فالقصة القرآنية بطابعها الفني وبعناصرها الأدائية من شخصيات، ومواقف وسرد وغيرها كانت من جملة المباحث التي وقف عندها سيد قطب، وحاول تأصيل الرؤيا فيها على ضوء الإنجازات النقدية والتحليلية المعاصرة، وهو بذلك قد دفع بالدرس الجمالي القرآني في طريق مشوق يجني منه دون شك الكثير من الثمار اليانعة التي ستؤكد علو كعب البلاغة القرآنية.

ويرى مالك بن نبي؛ أن أدبية القرآن قد تجسدت في ذلك الإنجاز الرائع الذي حققه الخطاب القرآني على مستوى التعبيرية، والذي تجاوز به الأنماط القولية التي كان العرب يألفونها، لقد أحدث الخطاب القرآني كما يقول مالك بن نبي: انقلاباً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة مفاهيم أو موضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد¹⁹.

لقد تخطى القرآن بتفرد وتميز نسيجه البنائي الإمكانيات الجمالية الأدبية التي أسستها اللغة العربية لنفسها طيلة قرون، حتى أنه يمكن اعتبار الخطاب القرآني ثورة تجديدية في الأطر الجمالية والبلاغية التي كانت قبله، ثوره لا تقل أهمية عن الانقلاب الجذري الذي أحدثه القرآن في المجتمع العربي الجاهلي وفي العالم كله، مؤكداً أن الخطاب هو أقوى مرجعيات التغيير والبناء.

"والخطاب القرآني يتمتع بقدرة كبيرة على استيعاب المفاهيم، والأنماط اللفظية غير العربية وتطبيقها مع ما ينسجم وروح اللغة العربية"²⁰

يظهر ذلك على مستوى الأسماء الأعجمية خاصة (أسماء الرسل من بني إسرائيل).

ج - "محمد أركون والأدبية القرآنية :

ونجد الأدبية القرآنية مع "محمد أركون " تنحو منحى فكريا ,فصوت العاطفة فيه لا يجنبوا تماما ، ولكنه يتذرع بالعقل،فهما للظاهرة القرآنية وتعريفها لها ، وتفكيكا للخطاب القرآني بأدوات معرفية جديدة كخطوة توسع فيها الصلات الجدلية بين الديانات الكتابية في العالم .

و"أركون" يحدد المرتكزات النوعية التي تقوم عليها أدبية الخطاب القرآني ويجملها في كونه :

1- صادقا : إذ هو فعال في النفس البشرية التي بقيت بمنأى عن خطاب آخر يفتح لها منظورا مشابها.

2- فعالا : إذ هو يربط الإنسان بالزمن البدائي ويخلق بنفسه زمنا مثاليا ،هو زمن الوحي ,زمن السلف الصالح الذي يستقطب إليه وحي الأمة ,سعيها إلى تحقيق واقع الهداية.

3- تلقائيا : إذ هو انسياب متتال لتقنيات لا نحتاج في التدليل عليها إلى برهان ، وإنما تحتاج إلى التماس أوجه ملاءمتها لتطلعات الفطرة البشرية ,فهي قد جاءت لمخاطبتها ، فحدائية القرآن حدائية جمالية وأدبيةأمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض والخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول أو من نجم من بعدهم من الطاعنين ، بل لقد تأتي لخطابية القرآن أن تجب أضرابا بيانية ترتبط بثقافة العرب الشركية ، كانت مناط تجلّة وتفخيم²¹

فالخطاب القرآني كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر ضمير المتلقي برسالة متكاملة لا تغفل منزعا من منازع الحياة , والوجود ، تحريرا للفرد و الجماعة، من نير الأسطورة واللامعقول الخرافي .

الخاتمة :

من خلال سبق يمكن أن نستنتج الآتي :

1- الخطاب القرآني يتسم بالجمال ، والأداء الجيد.



- 2- ظاهرة الجمال لاتكاد تخلو منها الآيات القرآنية بل هي تستحوذ على جميع الآيات .
- 3- علاقة الجمال اللغوي بالخطاب علاقة وطيدة .
- 4- اختلاف وجهات النظر عن الخطاب والجمال بين سيد قطب ومحمد أركون.
- 5- الخطاب القرآني يختلف عن الخطاب الشعري وغيره .

الهوامش والتعليق:

- 1 - سورة الأحزاب الآية 49.
- 2 - ابن منظور : لسان العرب مادة (جمل) ج 1 إعداد يوسف الخياط ، دار الجيل ، بيروت ، د ، ط 1988 ، ص 503.
- 3 - الزمخشري : أساس البلاغة ، دار الكتب ، القاهرة ، ط 5 ، 1973 ص 64 .
- 4 - عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر ، ط 1 1974 ، ص 37.
- 5 - الجاحظ : الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، ج 4 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 1952 ، ص 96 .
- 6 - أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة ، ج 1 ، دار الأفق الجديدة ، بيروت. ط 1971 ، 7 ، ص 257.
- 7 - سورة يوسف الآية 18.
- 8 - سورة النحل الآية 06.
- 9 - سورة الحجر الآية 85.
- 10 - سورة الأحزاب الآية 49

- 11 - ابن كثير ، السيرة النبوية ، تح : مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، دط ، 1971 ، ج 1 ، ص 499.
- 12 - أحمد ياسوف ، جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، سوريا ، ط 1 ، 1994 ، ص 33.
- 13 - ابن منظور : لسان العرب ، مادة خطب ، المصدر السابق ج 2 ، ص 856 .
- 14 - أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمان بدوي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط 1 ، 1983 ، ص 181.
- 15 - ينظر سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي المغرب العربي ، ط 2 ، 1993 ، ص 19 .
- 16 - حسين الصديق ، فلسفة الجمال ورسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط 1 ، 2003 ، ص 267.
- 17 - سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط 1983 ، ص 7 ، ص 97.
- 18 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق ، بيروت، م 3 ، ط 12 ، 1986 ، ص 1011.
- 19 - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط 4 ، 1984 ، ص 185 .
- 20 - Mohammad Arkoun, Lectures du coran , edition maison neuve(2) 1982 , p23,baris
- 21 - سليمان عشراقي : الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1998 ، ص 1 ، ص 7 .